كتاب الشباب

سر الوثائق المسروقة



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

سر الوثائق المسروقة

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

سر الوثائق المسروقة – الرياض

٣٦ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٩-٣٧-٤٠-٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – المغرب أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨١٤

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨١٤ ردمك: ٩-٣٧-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

سمعَ مصطفى القِلاعي نُباحَ الكلابِ في جَوْفِ اللَّيْلِ، فأرهفَ سمعَه. لا بدَّ أن القادمَ غريبٌ. واقتربَ النباحُ من بَابِ دَارِه، فاعتدلَ جالسًا في فرَاشِه، وسمِعَ هشًّا علَى الكلابِ، ثم طرقًا شديداً على بَابِ دَارِه.

وقفَ القلاعي خلْفَ البَابِ وفي يَدِه هَراوةٌ، وسألَ:

– مَن؟

– قريبٌ، افتحْ!

وعرَفَ القلاعيُّ الطارِقَ من صَوتِه الأجَشِّ، إنه أحمدُ الصَّعيديُّ الأعورُ. واستعاذَ باللهِ من شَرِّ ما خلقَ، وأخذَ يتساءلُ في سِرِّه: «يا تُرَى، مَا الذي جاءَ به في هَذه السَّاعةِ؟»

ووارَبَ البابَ، فدفعَه الصعيديُّ في وَجْهِه بقوَّةٍ، ودخلَ:

– هيَّا، الْبَسْ جِلبابَكَ! سننزلُ إلى أصيلةَ.

– في هَذه السَّاعة؟!

– نعَمْ، في هَذهِ السَّاعَةِ! البَركَةُ في البُكورِ.

وحينَ تردَّدَ مصطفَى القلاعيُّ صدمَه الصَّعيديُّ بقَوْله:

– عظَّمَ اللهُ أجرَك في أخيكَ سيدي محمَّدٍ العَدْلِ! والبقيةُ في حَياتك!

فُـوجِئَ القَـلاعيُّ بالخَـبَرِ ولَـمْ يَدْرِ مـا يفـعلُ، ووقـفَ يردِّدُ: «الله! الله! الله!»، وانضـمَّتْ إِليـهـمـا زوجـتُـه التي سـمِـعَت الخبرَ، فسلَّمَتْ علَى الصَّعيـديِّ، وتـكلَّفَتْ بعضَ الحُزْنِ، قالت لزَوْجِها:

– سأنزِلُ معَكُما إِلى دَارِ أخيكَ.

ولبسَ القَلاعيُّ جلبابَه الصوفيَّ الأسودَ، وخرجَ يستفسرُ الصَّعيديَّ عَنْ وفَاةِ أخيه المُفَاجئة، فقالَ لَه:

– سكتَ قلبُه. تُوُفِّيَ وفاةَ الأوليَاءِ والصَّالحينَ، لَم يتعذَّبْ، ولم يُعذِّبْ! وقبلَ أنْ يجِدَ القَلاعيُّ صيغةً ملائمـةً لسُؤالِ الصعيـديِّ عَن سبَبِ اهتمَامِه المفَاجئ بوفَاةِ أخيه وتجشُّمِه الرحلةَ إِلى قَرْيةِ الدُّمَيْنَةِ ليلاً لإِخبَارِه بهَا قالَ الصعيديُّ:

– كلُّ نَفْس ذائقةُ المَوْتِ. وكُلُّنا لهَا، ولكنَّ الحيَّ أهمُّ من المَيِّتِ. وعليكَ أن تفكِّرَ في نَفْسِك، وفي مَاذا سينوبُكَ من تركَةِ أخيك.

– أخي عَدْلٌ صغيرٌ بالمحْكَمَةِ. وأنا أعرفُ أنَّه لم يُوفِّرْ شيئًا بالمرَّةِ، وقد يكونُ عليَّ أنَا أن أعولَ زوجتَه وابنتَه.

ـ لا، بالعَكْسِ، يا سيدي مصطفَى! قَد لا يكونُ أخُوكَ غنيًّا، ولكنْ توجدُ في حَوْزَتِه ثروةٌ هائلةٌ!

ـ ثروةٌ؟!

ـ نَعَم، ثروةٌ من الوثَائقِ والمستَنَدَاتِ والرُّسُومِ العَدْليَّةِ لعَدَدٍ من الممتلكَاتِ والعَقَاراتِ، نسيَهَا أهلُها عندَه أو مَاتوا عَنها أو ينتظرونَ تَجْديدَها أو تسجيلَها في سجِلِّ المَحْكَمةِ.

فانتبهَ مصطفَى إلى أهمِّيتِها، واستيقظ طمَعُه وجَشَعُه، فقالَ مساومًا:

ـ ولكنَّها وثائقُ النَّاس!

ـ أعرفُ! أعرِف! ولكنَّ الموتَ يُلغي ما قبلَه، كما قالَ سادتُنا.

ـ ماذَا تَعْني؟

ـ أعْني أنَّ الوثائقَ غالبًا ما تضيعُ أو تختَفِي، بعدَ وفاةِ العَدْلِ. ولَنْ تَكُونَ هَذه استثناءً. فإذَا استطعتَ الحُصولَ عليهَا هَذه اللَّيلةَ بالذَّاتِ، فستكونُ كَمَنْ نزلَ علَيْهِ كَنْزٌ من السَّماءِ!

ـ ما مَعْنَى (هَذه الليلةَ بالذَّاتِ)؟

ـ إذ ا تأخَّرنا حتَّى تُعْرَفَ وفَاتُه، فسيرسلُ القَاضي مَن يحجزِ الوثائقَ ويأخذُها إلى المحكَمَةِ، وتسْقُطُ يَدُنا في التُّرابِ!

وتردَّدَ القلاعيُّ فقال الصعيديُّ مشجِّعًا:

ـ ما عليكَ أنتَ إلا أنْ تأتيَني بقُفَّةِ الوثَائقِ التي يحتفظُ بهَا المرحومُ تحتَ سَريرِه، وسأدفعُ لكَ عَن كُلِّ وثيقَةٍ، صالحَةً كانتْ أو طَالحةً خمسَمائةِ بَسيطةٍ!

فجحظَتْ عَيْنَا القلاعيِّ، ونسيَ حُرْمَةَ وفَاةِ أخيه، وكَرَّر:

ـ خمسَمائةِ بَسيطة؟!

ـ كَما سمِعتَ! ولكنْ بشَرْطِ أن أتسلَّمَها الليلةَ، وألاَّ يعرفَ أحدٌ أينَ ذهبَتِ الوثائقُ.

ـ وماذَا ستفعلُ بهَا؟

ـ هذَا شَأني!

وخرجَتْ زوجَةُ القلاعيِّ مُلْتحفَةً ولابسةً أحسنَ ملابسِهَا، ووضعتْ أمامَ زَوجِها قُفَّةً كبيرةً بهَا بعضُ الموادِّ الغذائيَّةِ كالحَليبِ والجُبْنِ والزُّبْدِ والخُبْزِ والسُّكَّرِ واللَّحْمِ والخُضَارِ لدَارِ المرحُومِ.

وركِبَ الثلاثةُ بهائمَهم وتوجَّهُوا إِلى أصيلةَ. وسارَ الصعيديُّ إِلى جَانبِ القلاعيِّ يغسِلُ دمَاغَه ويُغْريه ويحرِّضُه علَى سَرِقةِ الوثَائقِ حتَّى أوصَله إِلى بَابِ دَارِ أخيه، علَى أساسِ أن يحملَ هذَا إِليه الوثائقَ، ويتقاضَى ثمنَها قبلَ الصَّباحِ.

* * *

وفي صَحْنِ الدَّارِ تعانقَتْ زوجةُ مصطفَى القلاعيِّ وزوجَةُ أخيهِ رحمةً وتباكيًا، وتركَهُنَّ مصطفَى يتباكَيْن، ودخلَ الغُرفَةَ الكَبيرَة، حيثُ كَانَ جثمانُ أخيهِ ما يزالُ ممدَّدًا فوقَ سَريرِه، فكشفَ عَن وجْهِه، وقبَّلَ رأسَه، ووقفَ يقرَأ الفاتحةَ عَلى رُوحِه. واختلطَتْ دَعَوَاتُه بأذَانِ الفَجْرِ الذي انطلقَ من جميعِ مآذنِ المدينةِ في الوقتِ نَفسِه.

وبمجرَّدِ انتهَائِه من الدُّعَاءِ التفَتَ خلفَه ليتأكَّدَ من أنَّه مَا زالَ وحدَه، وأطلَّ تحتَ السَّريرِ فلاحَتْ له قفةُ الوَثائقِ. وانبطحَ علَى الحشيةِ ومدَّ يدَه وأخرجَها، ورفعَ ستَارَ الغُرْفةِ، وأطلَّ فلَمْ يَرَ أحداً بصَحّن الدَّارِ. كانَتِ النِّسوةُ الثَّلاثُ قَد دخلْنَ غرفَةَ الجُلوسِ الصغيرةَ، وأدلَيْنَ السِّتارَ. فتسلَّلَ خارجًا من الدَّارِ،

ووضعَ القـفـةَ في جرَابِ حِصَـانه، ووثـبَ فـوقَـه، وتـوجَّـه صَـوْبَ بَيْتِ الصَّعيدي.

وقبلَ وصُـولِه إلى البَيْتِ بقَليلٍ توقَّفَ للتَّـفْكيـرِ قليـلاً، ثـم لَوَى عُنُقَ الحصَانِ بلجَامِهِ، وتـوجَّـه خـارجًا من المَدينةِ في طَريقهِ إلى قَرِيَةِ الدُّمَيْنَةِ.

* * *

وفي طَريقـِه مرَّ بجمَاعَتِنا التي كـانَتْ مُتـوجِّهـةً إلى شَاطئِ (سـيـدي مُغـيث) في رحلَةٍ مَـدرسيَّـةٍ، بمناسَـبـةِ نـهـايَةِ السَّنةِ الدراسيَّـةِ. سـمْعنَا وَقْعَ حَـوَافرِ حصَانٍ بعيـدَةٍ خلفَنا، والتـفَـتْنَا فـرأيناه يغطِّي رأسَه بقبِّ جلبَابه، ويعَضُّ علَى جانبَيْه حتَّى لا نرَى وجْـهَـهُ. وفسَـحْنَا لَهُ الطريقَ، فـمرَّ راكـضًـا دونَ أن يسلِّمَ، فعلَّقَ عبدُ السَّلام بأنَّ الرجلَ لا بدَّ أنْ يكونَ من قُطَّاعِ الطَّريقِ، ولا يريدُنَا أن نتعرَّفَه.

ولـم تَـمْضِ سـاعَـتـان حتَّى كـانَ مـصطفَى القـلاعيُّ قـد عـادَ إلى دَارِ أخـيـه بأصيلةَ، بعـدَ أن تـركَ قُفـةَ الوثَـائقِ في مكَانٍ أمينٍ بدَارِه بالقـريَةِ. عـادَ وفي ذهْـنِه خطةٌ واضـحـةٌ للضَّـغْطِ علَى

الصَّـعـيـديِّ ليـدفعَ أعلَى ثَمَنٍ في الوثَائقِ المسْـرُوقـةِ دونَ أن يتعرَّضَ لغضَبهِ أو أذَاه!

* * *

ووصلْنَا نحنُ إلى سيدي مُغيثٍ، وقضَيْنَا به مَا يمكنُ أنْ أَصفُه بلا مُبَالغةٍ، بأنَّه أطولُ يَوْمٍ في حَياةِ جماعَتِنا.

وبعـدَ صَلاةِ عـشَـاءِ ذَلكَ اليَوْمِ المَشْهُودِ بمسجد (سيدي مُـغـيثٍ)، وذَهابِ المقـدّمِ وبَعْضِ القـرويِّين الذينَ صلَّوا مـعَنا، اجـتـمَـعْنَا حـولَ عَظيـمُـو الذي انضمَّ إلينَا في الطَّريقِ، وأصبحَ طبَّاخَنا، ليحكيَ لنَا حلقةً جديدةً من مسلسَلِ المَلكِ سَيفٍ.

وكـانَـتْ صـينيـةُ الشَّـايِ وسْطَ الحَلْقَـةِ، وإبريقُ الماءِ يَغْلِي علَى الكَانُونِ بالخَارجِ. وكانَ عبدُ السَّلامِ كلَّما طلبَ من أحَدنا أنْ يُطِلَّ على الإبْريق ليـرَى هَل غَلَى الماءُ، يتلكَّأُ خشيةَ أن يفوتَه شيءٌ من الأزليّةِ. فكان يطلبُ من عَظيمُو التوقُّفَ حتَّى يعودَ، إلى أنْ غَلَى الماءُ. فتوقَّفَ عظيمُو عن الحَكْي، ليُعِدَّ الشَّايَ.

واستغلَّ البعضُ توقُّفَهُ للخُروجِ لقَضَاءِ حاجَاتهم التي كانُوا يحبِسُونَها حتَّى لا يضيِّعُوا جزءاً من الحكَايةِ. وبعدَ بِضْعِ

دقائقَ عادَ ثلاثةٌ من هَؤلاء يرتجفُونَ من الخَوْفِ، واندَسُّوا في الجَمَاعةِ؛ الْتماسًا للحمَايَةِ والأمْنِ. وحينَ سُئِلُوا عمَّا بهمْ، أجابَ الأولُ: «رأينَا جنِّيا!»

وقالَ الثَّاني: «ظهرَ لَنا في شَكْلِ غُلامٍ قَاعدٍ علَى صَخْرةٍ يَبْكي...»

وأضافَ الثالثُ: «أنَا الَّذي اكتشفتُ أنه منَ الجِنِّ، وحذَّرْتُهم من الاقترَابِ منْه.»

فسَألهُ عبدُالسَّلامِ غيرَ مصدِّقٍ: «كيفَ عرفْتَ أنَّه جنِّيٌّ؟»

فقالَ: «من رجلَيْه البَهيَميَّتْينِ وذَيْلهِ الطَّويلِ الملفُوفِ حَوْلَ ساقَيْه.»

وسألَ عظيمُو: «أينَ وجدتُمُوه؟»

فقالَ الأولُ: «في الطَّريقِ المؤدِّيةِ إلى قَريَةِ الدُّمَيْنة.»

فسألَ ابنُ المبَاركِ: «هَل قرأتُم المُعَوِّذَتَيْن، حتَّى تتأكَّدُوا أنَّه جنيٌّ؟»

فقالَ الثَّاني: «شَلَّنا الرُّعبُ تمامًا، فلمْ نَستَطعْ حتَّى التَّفْكير!»

وقالَ الثالثُ: «الحمدُ للَّهِ علَى أنَّ أقدامَنَا لم تُشَلَّ، هيَ الأخرَى، وإلاّ كانَ ارتمَى فينَا وتقمَّصَنَا!»

فقالَ حمادٌ، وهُوَ ينظرُ إليهمَا بعينَيْن جاحظَتْين، ويزحفُ مبتعِداً عنهُما: «مَنْ أدْرَانا أنّه لَمْ يَرْتَمِ فيكُم، ويسكُنكُم بالفعْلِ، وأنَّه يتكلمُ الآنَ من دَاخِلِكم بأَلْسِنَتِكُم!؟»

وزعقَ عُويْرةُ، وقامَ من مكَانِه بجَانبِ أحَدِهم هاربًا ومختبِئًا خَلْفَ عَظيمو وتَبِعَه البوكيتُ. وتنازعَ الاثنانِ علَى ظَهْرِ الرَّجُلِ، فدفعَهُما عنه شاتمًا، فوقعَ البوكيتُ فوقَ عُوَيْرةَ، واشتبكَا أمامَ سُخْطِ الجَميعِ. كُنَّا نُريدُ الهُدوءَ لنسمَعَ المزيدَ عن الغُلامِ الجنِّيِّ. وحينَ لَم ينفَعِ الكلامُ في التَّفْريقِ بينَ القِرْدَيْن المتعَاركَيْن، أمسكَ عبدُالسَّلام بِعكَّازٍ، ونزَل فيهمَا خبطًا عشوائيًا حتَّى تفرَّقَا، وعادَ الغَريمَانِ إلى القُعُودِ علَى يمَينِ ويَسَارِ عَبْدِالسَّلامِ، لمنعِ الاحتكَاكِ.

وتوتَّرَ الجوُّ؛ فقد مالَ الجميعُ إلى تَصْديقِ مُلاحَظةِ حَمَّادٍ عنِ ارْتماءِ الجِنِّي في الأوْلادِ الثَّلاثةِ، وتقمُّصِه لَهُم. وهنا وضعَ عظيمو ما كانَ في يَدِه، ووقفَ قَائلاً:

« سأذهبُ بنَفْسي للتأكُّدِ من هذَا الكَلامِ الفَارغِ. مَن يريدُ أن يصحَبَني؟ »

وحينَ وجمَ الجميعُ، وقفَ عبدُالسَّلامِ وأخُوه المختارُ، وحذَا حذوَهما ابنُ المُبَاركِ ومُغيثُ الذي كَان يخشَى علَى حمارِه من صَعْقِ الجنِّ.

وفعلاً وجدُوا الغُلامَ البَاكيَ. وأمسكَ ابنُ المُبَاركِ بذرَاعِ عَظيمو، حتَّى لا يتقدَّمَ، وأخذَ يقرأُ سورةَ الفَلَقِ، ويرفعُ صَوْتَه تدريجيًّا وينظرُ إلى الغُلامِ، متوقِّعاً أن يلْتهِبَ ويحترِقَ، ويتحوَّلَ إلى دُخَانٍ في رَمْشةِ عَيْنٍ، أو يَخْتَفيَ ناجياً بنَفْسِه!

ولمَّا لَمْ يَفْعَل، تقَدَّمَ عظيمو وسألَه من بَعيدٍ:

« مَنْ أنتَ؟ إنْسيٌّ أم جنيٌّ؟ »

فكفَّ الغُلامُ عَنِ البُكاءِ، ومسحَ عَيْنَيهِ بظَهْرِ يَدِه، وقالَ: « ألَمْ تَعْرفْ مَنْ أنا يا عْظيمُو؟! أنَا عَبْدُ القَادِرِ الغورْفْطِي، وَلَدُ سي عَلاّلَ الغورفطي... »

فصاحَ فيه عَبدُالسَّلامِ: « قُلْ أشهدُ ألاّ إله إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللّه! »

فكرَّرَها الغلامُ معَه، مستسخِفًا ظنَّهم أنه جنيٌّ، وأضافَ:

« أناَ إِنسٌ، الجنُّ هُم بعضُ بَني آدمَ! »

فسألَه عظيمُو:

« وماذَا تفعلُ هُنا وحدُك، في هَذِه السَّاعةِ؟ ولماذَا تَبكي؟ »

ولَم ينتظرْ جَوابَه، فقد عرفَه من صَوْتِه ومَلامِحِه، رغمَ خُفُوتِ الضَّوْءِ، فناداَه: « تعالَ، تعالَ معنا إِلى الداخلِ، وهُناك أخبِرْنا بمَا وقعَ لَك. »

ووقفَ الغُلامُ، وتسمَّرَتْ عُيونُ الجَميعِ على قدمَيْه، فإِذَا هُمَا قَدَمَا آدميٌّ حَافيتَان. وبحثَا خَلْفَه عن ذَيْلٍ فلَمْ يجدُوا شيئًا.

وفي الجَامع، هيَّأَ له عبدُالسَّلامِ شطيرةً كبيرةً، وصبَّ له عَظيمُو كأسَ شَايٍ شَديدَ الحَلاوةِ، فقعدَ يأكلُ بنَهَم، ويرشُفُ الشَّايَ بصَوْتٍ مَسمُوعٍ، ونحنُ نشرَبُ شايَنا ونتفرَّجُ عَلَيْه، غيرَ مصدِّقينَ أنَّه بشرٌ، ومتوقِّعينَ أنْ تكونَ حَركَاتُه هَذِه مجرَّدَ تَغْريرٍ وتَضْليلٍ. ورغمَ أنَّنا جميعًا كنَّا نعرِفهُ فقدْ بَدَا لنَا غريبًا، ونحنُ نتأمَّلُه تحتَ ضَوْءِ سِرَاجِ الغَازِ الأصْفَرِ البَاهتِ، فقدْ كانَ

قـصـيـراً، ممتلئًـا، ولَه وَجْـهٌ طَويـلٌ سَـمـينٌ، يكـادُ يمثِّلُ رُبْعَ طوُلِ جَسَدِه!

وحينَ التـهَـم الشطيـرةَ وشربَ الشَّـايَ، طلبَ مَـاءً، فـشـربَ منْه كأسًا كبيرةً واستزادَ.

وسَأله عظيـمُو عن مُشْكلَته، فحكَى لنَا أن أبَاه تُوُفِّيَ وتركَ عـددًا من الوثَائِقِ والرسُـومِ العَـدْليَّـةِ للفَـقـيـهِ العَـدْلِ مـحـمَّـدٍ القِلاَعي. وكُلَّما ذهبتْ أمُّه لاِسْترْجاعِهَا كانَ الفقيهُ القلاعيُّ يُسوِّفُها، ويعتـذرُ لهَا بضيقِ وَقْته عن البَحْثِ عَنْها تحتَ ركامِ الأوراقِ. وبَقيَ كـذلكَ إلى أن تُوُفِّيَ هو الآخَرُ. وحينَ ذهبَتْ أمُّ الغورفطي إلى زَوْجَـةِ العَـدْلِ لاسـترجَاعِـهَـا قـالتْ لَهَـا إنَّ أخَـا زَوْجِها، مصطفى القلاعيَّ، أخذها كُلَّها وسلَّمَها للمَحْكَمةِ. وحينَ سألتْ في المَحْكَمـةِ قيلَ لهَـا إنَّ مـصطَفَى القـلاعيَّ رجلٌ عَديمُ الذِّمَّـةِ، ميِّتُ الضَّـميـرِ، وطَالما اشـتكَى أخُوه العَـدْلُ من ضَيَاعِ وَثَائقِ النَّاسِ التي كـانَ يسرِقُها مـصطَفَى منه، ويبـيعُـهـا للصَّعيدي الأعْوَرِ الذي كانَ يَسْتَولي بهَا علَى أمْلاَكِ النَّاسِ.

قال الفَتَى: «وعرفَتْ أمِّي من زَوْجَةِ الفَقيهِ القلاعيِّ أنَّ أخَا

زَوْجِهـا يسكُـن بقـريَةِ الدُّمَـيْنَةِ القَـريبَـةِ من هُنَا . فأرسلَتْني إِليـه لسُؤالهِ عن وَثَائقِنا واستعطافِه لردِّها إِلينا . فقد أصبَحْنَا فُقراءَ، بسبَبِ ثقـةِ وَالدي بذلكَ العَـدْلِ الجَاهلِ المُهْـمِلِ! وحينَ طلبتُ من أخيه أوراقَنا قالَ لي إِنَّه دفعَهـا إِلى المَحْكَمةِ . وحيَن أخبرتُه بما قـالَتْـه لَنَا المحكمـةُ غـضِبَ وصـاحَ في وَجْـهي : «إِذْن أنَا كذَّابٌ ! »

وتلطَّفْتُ مَعَه وطلبتُ منه النزولَ مَعي إِلى المَحْكَمـةِ لإِزَالةِ سُوءِ التَّفـاهُمِ، فقـالَ لي إِنَّه سلَّمهـا للمَحْكَـمةِ الكَبيـرةِ بتَطْوانَ وأنَّه ليسَ أحـمَقَ حـتَّى يُسلِّمَ وثائقَ النَّاسِ لِمَحْكَمــةٍ أصـيلةَ الصَّـغـيَـرةِ العـامـرَةِ بالذِّئَابِ . وطلبتُ منهُ الذَّهَابَ مَـعي إِلى تطوانَ، ليكـونَ شَاهدي ويُسـاعِـدَني علَى استـرجَاعِ الوَثَائق، فرفضَ متـذرِّعًا بكَثْرةِ أشْغَاله . وكُلَّما استعْطَفْتُه، زادَ قَسْوةً وعُنْفًـا . وأخـيـرًا طردَني من دَارِه، وهدَّدَني بالذَّبْحِ وتَقْـديمي طعامًا لكلاَبِه إِذَا أنَا لَمْ أغرُبْ عَن وَجْهِه ! »

وسَكَتَ لحظةً، وبان عَلَيْـهِ الحُـزْنُ واليَـأسُ، ثُم أضَـاف : «لا أدْري مـاذَا سأقولُ لأمِّي . سيُـحْزِنُهـا هذَا حُزناً شـديداً . لذلكَ

جلستُ وَحْدي أبْكي على قَارِعةِ الطَّريقِ، حيثُ وجَدْتُموني.»

ودفنَ وجهَه في كَفَّيْه، وأخَذَ يَبْكي. ورانَ صَمْتٌ عَميقٌ على الجماعَة، وانتقلَ حُزنُ الغُلامِ إليهمْ، ومعَهُ غضَبٌ شَديد على مُصْطَفَى القلاعيِّ اللصِّ، ورغبةٌ في الانتقامِ للغُلامِ منه.

ووضعَ عَظيمُو يدَه علَى رَأسِ الغُلامِ مُواسيًا، وقالَ: «لا تحزَنْ، سنُفكِّرُ في شَيْء.»

وأعادَ امتلاءُ البَطن ودفْءُ الشَّاي والصحبةُ الطيبةُ التفاؤلَ إلى الغُلامِ. واستأنفَ عَظيمُو الأزليةَ، ليُنْسِيَه هَمَّه، ويصرفَه عن التَّفكيرِ فيه.

ودامَتْ السهرةُ إلى مُنْتَصَف اللَّيل، وبدَأ النومُ يداعبُ الجفونَ، وأسنَد كلٌّ من عُويَرةَ والبوكيتُ ظهْرَه إلى ظهْرِ صاحبِه، وانخرطَا في الشَّخير. ورفعَ عبدُالسَّلام يدَه السَّمينةَ لصَفْعِهما للكفِّ عَنِ الإزعَاجِ، ولكنَّ عَظيمُو تدخَّل لمَنْعه؛ خشيةَ أن يشتبِكَا في مَعْركةٍ نحنُ في غِنَى عنهَا.

وباتَ عَظيمُو يفكِّرُ في حلٍّ لمُشكلَةِ الغورْفطيِّ. وقلَّبَ الأمرَ علَى جميعِ وجُوهِه، واستقرَّ رأيُه على التسلُّلِ إلى دارِ

القـلاعيِّ، وأخْـذِ الوَثائقِ. ولكنَّه احـتـارَ في وَسـيلةِ إِخْـرَاجِ القـلاعيِّ وجَـمـيعِ أهْلِه من الدَّارِ، للبَحْـثِ بحُـرِّيَّةٍ عَن مَـخْـبَـأِ الوَثائقِ. وبقـيَ يفـكِّـرُ حـتَّى غلَبَـه النومُ دونَ أن يتـوصَّلَ إِلى نَتيجةٍ.

* * *

وفي الصَّبَـاحِ حـمَلَ سَطْلَينِ، وقـالَ لعَبْـدِالسَّلامِ إِنَّه ذاهبٌ إِلى (سَبيْعُون) للاستقَاءِ. وفي الحَقيقةِ كانَ يَنْوي التوجُّهَ إِلى الدُّمَيْنةِ، ليعايَن دارَ القلاعيِّ عَن كَثَبٍ. وفي الطَّريقِ خطَرتْ لَه فكرةٌ ضـاعـفَـتْ قلقَـه، مـاذَا لَوْ كـانَ القـلاعيُّ باعَ الوَثائق للصعيديِّ الأعورِ؟ سيذهبُ جُهدُه إِذنْ هَباءً منثوراً!

وعلَى عَيْنِ سَبيعونَ – سَبْعِ عُيونٍ– وجدَ امرأةً عجوزاً تستَقي، وكانَ يعرِفُها لنُزولِها إِلى سُوقٍ أصيلةَ لبَيْعِ الخُضَرِ والبيْضِ. وكانَتْ تعرِفُ أمَّه، وتزورُها كلَّ يَوْمِ خَميسٍ، لتبادُل الأخْبَارِ والإِشَاعَاتِ المحليَّةِ والاستمتَاعِ بالنَّميمَةِ. وأثناءَ السَّلامِ علَيْها، خطرَتْ ببَاله فكرةٌ أعجبَتْه، فقَّررَ تنفيذَها في الحَالِ. فنظرَ حَوَالَيْه وقالَ لَها هامسًا، وكأنه يُفشِي لها سِرًّا خطيرًا:

« هلْ وصلَتِ اللجنُة إلى الدُّمَينة؟ »

– « أية لجنة؟ »

وأزاحَتْ عن أذُنِها اليُمنَى غِطاءَ رأسِهَا وخَصْلَةً من شَعْرِها الأبيَضِ، ووضعَتْ يَدَها وراءَها لتسمَعَ أحسَن، وجعَّدتْ وجْهَهَا لإظهَار الاهتمَامِ. وخُيِّل إلى عَظيمُو أنَّ الأذُنَ تكبُرُ وتبرُزُ من مَكَانِها، وتتحوَّلُ إلى بُوقٍ كَبيرٍ، فاقتربَ منهَا أكثرَ وهمسَ:

« لجنةُ التَّفْتيشِ التي جاءَتْ من مَحْكَمةِ تطوانَ للبَحْثِ عَن وثائقَ مَسْرُوقةٍ من دارِ المَرْحُوم محمَّدٍ القلاعيِّ العَدْلِ بأصيلةَ. »

– « لا، لم تَأتِ. متى خرجَتْ من أصيلةَ؟ »

– هذَا الصَّباحَ. تركْتُها أنَا في الطَّريقِ ورَائي بقَليل.

وانحنَى علَى أذُنِها، ونظرَ حوَالَيْه، وأضافَ:

– « إيَّاكِ أن تُخْبرِيه؛ حتَّى لا يُخبِّئَ الوثائقَ، حيث لا تَعْثُرُ علْيهَا اللجنةُ! »

فقالَتْ متبرِّئةً:

- أنَا أقولُها لَه !؟ لمْ يبقَ لي إذًا ، شُغلٌ!

وأخـذَتْ تدعُـو على نَفْسِـهـا بأقبَحِ الأمْـراضِ وأخطَرِ الكَوَارثِ، إنْ هيَ باحَتْ بالسِّرِّ...

ومَلأتْ جرَّتَها بسرعَةٍ، وودَّعَتْه وتوجَّهَتْ نحوَ القَرْيةِ.

وأخفَى عظيمو سَطْلَيْه بينَ النَّباتَاتِ، وتبِعَها من بَعيدٍ حتَّى دخلَت القَرْيةَ، وصعِدَ فوق صَخْرةٍ مُحاطَة بالأشْجَارِ، تُطِلُّ علَى وَسَطِ القَرْيةِ.

وكمَا توقَّعَ، رَأى العجوزَ تهرولُ صَوْب دَار بعَينهَا. وبعدَ بضْعِ دقائقَ خرجَت، وخرجَ خَلْفَها رجلٌ ضَخْمٌ، في قَميصِ نَوْمهِ، ووقفَ على دكَّةٍ أمامَ الغُرفَةِ الكُبْرى، وأخذَ يشْرَئِبُّ بعُنُقه إلى الطَّريقِ المؤدِّيَةِ إلى القَرْيةِ. وحينَ لَم يرَ أحداً، عادَ إلى الغُرْفةِ، وأخرجَ قُفَّةً كَبيرةً، وهرولَ بينَ الغُرَفِ والزَّرائبِ، باحثًا عَن مكَانٍ يُخْفي فيه القفَّةَ، وقَد ظهرَتْ عليهِ الحيرةُ والقلقُ الشَّديدان.

وأخيرًا استقرَّ رأيُه علَى برميلٍ بجانبِ المَطْبَخِ، فزعزعَه عن مَكَانهِ، فإذَا تحتَه مَطْمُورةٌ لخَزْنِ الحُبُوبِ. فرفعَ غطاءَها، وألقَى

فيهَا بالقفَّةِ، وأعادَ البرميلَ إلى مَكَانه، وعادَ إلى غُرْفةِ نَوْمه، يمسحُ يَدَه في قَميصِه، ويلتفتُ حَوَالَيْه، خشيةَ أن يكونَ أحدٌ يراقبُه.

وابتسمَ عَظيمُو من بَيْن الأشْجَارِ، حتَّى ظهرَتْ أسنانُه الكبيرةُ، وانسحبَ من فَوْقِ الصَّخْرةِ، بخفَّةِ الفَهْدِ المتربِّصِ بفَريسةٍ. وعادَ إلى (سبيعون)، وملأ السَّطْلَين، وحمَلَهُما إلى سيدي مُغيثٍ. وطولَ الطَّريقِ كانَ يفكِّرُ في طَريقَةٍ للتسلُّلِ إلى مَخْبَأِ الوثَائقِ، في غَفلَةٍ من القلاعيِّ وأهْلِ القَرْيةِ دونَ أن يهتديَ إلى وَسيلةٍ.

وعلَى مَائدةِ الفطُورِ خطرَتْ ببالي أنَا فكْرَةٌ لا علاقةَ لهَا بمشكلَةِ الغُورفطيِّ. كانَ البحرُ قدْ لفظَ عدداً كبيراً من قطَعِ لحَاءِ الفلِّينِ المربَّعَةِ، وكانَ البوكيتُ وعويرةُ يتهيَّئان لإفرَاغِ مَخْزونِ طاقَتهمَا الليليِّ في مُبَاراةِ مصَارَعَةٍ جَديدةٍ، ويبحثَان عَن وسيلَةٍ لإشعَالِ الفَتيلِ.

فقلتُ أقترِحُ عليهمَا عملاً إيجابيّا بنَّاءً، يصرفَان فيه الطاقةَ الفائضةَ، خصوصًا أنَّهما كانَا محرومَيْنِ من لَعبِ كُرَةِ القَدَمِ

معَ الفريقَيْن، لشراستِهِما، وتحويلهما الملعبَ إلى مَيْدانِ قتَالٍ. فاقترحتُ عليهمَا جَمْعَ قطَعِ الفلّين، وبنَاءَ دَارٍ نستظلُّ بداخلِهَا من شَمْسِ الهَجيرِ.

وعجبتُ لقَبُولِهما اقترَاحي دونَ مُعَارضةٍ أو لجَاجٍ...

وبدَأنَا العملَ بجدٍّ كَبيرٍ...

ومعَ منتصَفِ النَّهارِ كانَتِ الغُرفُة جاهزةً، فدشَّناهَا بتناوُلِ الغَدَاءِ فيهَا، أمَامَ غَيْرَةِ الجَميعِ وحَسَدِهم، ومُحَاولاتِهم تخريبَها عَلى رُؤوسِنَا، لولا حِراسةُ البوكيتِ وعويرةَ، وتَباريهما في تَقْليدِ عُواءِ الذِّئابِ الجائعَةِ.

وبعدَ الغَدَاءِ، سمَحْنا للجماعَةِ بالدُّخُولِ إليها أفرادًا، للتفرُّجِ علَى تُحفَتِنَا، وثَمَرةِ عَبْقَريَّتِنا!

وغابَتِ الشمسُ ونزلَ الظلامُ، وعظيمُو ورفاقُه الكبارُ ما زَالوا يهرِشُونَ رؤوسَهَم بحثًا عن حلٍّ لمشكلَةِ الوصُولِ إلى الوَثَائقِ. كانُوا يفكِّرُون وحْدَهم، دونَ أن يُشرِكُونا نحنُ الصِّغَارَ، ظنًّا منهُم أنَّنا أقلُّ منهم عقلاً! عرفتُ ذلكَ منِ استمَاعي، عَن غَيْرِ قَصْدٍ، للحوَارِ اليَائسِ الدَّائرِ بينَهم.

فتدخَّلْتُ في الحَديثِ قائلاً:

« ماذَا تقولونَ لو وجدتُ لَكُم طريقةً لإفرَاغِ قَرْيَةِ الدُّمَيْنَةِ بأسْرِها، وإنزَالِها إلى هُنا، وإتاحَةِ الفُرصَةِ لكُم للبَحْثِ عَن الوثَائق؟! »

فظنُّوني أمزحُ، وانصرفُوا عَنِّي إلى أحَاديثهم ودورَانِهم في الفَراغِ.

وأثناءَ العشاءِ، وبينَما الجميعُ مشغولونَ بالْتهَامِ شَطائِرهم بشهيَّةِ الذِّئابِ، تسلَّلْتُ أنَا والبوكيتُ وعَوِّيرةُ إلى الغُرْفةِ التي أقمْنَاها، وأضرَمْنَا فيهَا النَّارَ... وكانَت ناراً عظيمةً، أضاءَتْ ما حَوْلَها لمسَافةٍ بعيدَةٍ، وانعكَسَ لهيبُها على مَاءِ البَحْرِ الهَادئ فتضاعفَ وَهَجُها...

ولاحَتْ لنَا علَى ضَوْئها، أشباحٌ سوداءُ صغيرةٌ وكبيرةٌ، تُطِلُّ من فَوْقِ الهضَابِ والتِّلالِ المحيطةِ بمنطقَةِ الضَّريحِ. ووقفَ المقدَّمُ يتفرَّجُ معنَا على النَّارِ الضَخْمةِ وهيَ تأكلُ نفسَها، وقالَ:

« سيظنُّ أهلُ القُرى المجاورَةِ أن السيدَ يحترِقُ! »

وابتسمَ عَن فَمٍ خَال من الأَسْنَان.

ووقعَت الملاحظةُ في أذُن عَظيمو وقوعَ المفْتَاحِ السحريِّ لحلِّ مشكلَةِ الغورفطيِّ. ونظر إِليَّ، فغمزتُه مبتسمًا: «هذه فرصتُك!» .فرد غَمْزَتي بأخرَى، وهمسَ في آذانِ جمَاعةِ الكبَارِ، وتركونَا نحنُ نتفرَّجُ علَى النَّارِ، وتسلَّلوا متوجِّهينَ صَوْبَ الدُّمَيْنَةِ، فتبعتُهم للمساهمَةِ في المُغَامَرةِ، وتنَفْيذِ الخُطَّةِ التي شاركتُ في وَضْعِ جُزءٍ مهمٍّ منهَا.

وكانَ أهلُ المدينَةِ قد رَأوا وهجَ النَّارِ في الأفُقِ، فظَنُّوا، كمَا تنبَّأَ المقدمُ، أن الضريحَ يحترقُ. وبما أنَّه بجوَارِهم فقدْ كانُوا يشعرونَ أكثرَ من غَيْرِهم بالمسؤوليَّةِ علَيْه. فهَبُّوا جميعًا إِلى إِطفَاءِ الحَريق.

ورأينَاهُم قَادمينَ من بَعيدٍ فخرجْنَا عَنِ الطَّريقِ، وانبطحْنَا بينَ الأَعْشَابِ مختبئينَ. ومرُّوا هُم رجالاً ونساءً وأطفالاً، يحملونَ الأسطالَ والدِّلاءَ والطَّناجرَ لإِطفَاءِ النَّارِ. وحينَ ابتَعدُوا قُمْنَا وتوجَّهْنَا إِلى القَرْيةِ الخَاليَة.

وفي بَيْتِ القلاعيِّ، فُوجئْنَا بأمِّه العجوزِ واقفةً على عَتَبةِ

الغُرْفَةِ الكُبْرَى المواجهَةِ للبَحْرِ، وهيَ تحاوُل أن تُتابعَ مَا يحدثُ علَى الشَّاطئ. وخافَ عَظيمُوا أن تُفسِدَ المرأةُ الخطةَ، وبانَ علَيه الترددُّ.

فتقدَّمْتُ من المرْأةِ لاهثًا، وعلَى وَجْهي قناعٌ من بَرَاءةِ الأطفَالِ، وسلَّمْتُ علَيْها بعَمَّتي الحاجَّةِ، وقلتُ لَها، مشيراً إلى بقيَّةِ الرِّفاقِ:

«أرسلَنَا الحاجُّ مصطفَى القِلاعيُّ، لنُحضِرَ لَه بعضَ الأسْطالِ والدِّلاءِ لإطْفَاء حَريقِ السَّيِّدِ، فهل تَدلِّينَنا علَيْها بسُرعَةٍ، من فَضْلك؟»

وانضمَّ إليَّ بقيةُ الجَمَاعةِ، ودخلَ عبدُ السَّلامِ الغُرفةَ، قبلَ أن تتمكَّنَ من الإجَابةِ، فتبِعَتْه مُرتبكةً لا تدْري مَا تفعلُ.

وهُنَا توجَّهَ عَظيمُو إلى البرْميلِ، فأزاحَه عن فَم المَطْمُورَةِ بسرعَةٍ، ورفعَ الغطاءَ، وأدخلَ يدَه فأخرجَ القُفَّةَ، وسلَّمَها إلى الغورفطيِّ، وأعادَ الغطاءَ والبرميلَ إلى مَكَانِهمَا، وصفَّر للجماعَةِ لإعْلامِهمْ بانتهَاءِ المهمَّةِ.

وخرجْنَا نحنُ من الغُرْفَةِ، مسرعينَ، وعُدْنَا إلى السيِّدِ من

طَريقٍ غَيْرِ طَريقِ سَبيعُون، حتَّى لا نَلْتَقيَ بأهْلِ القَرْيةِ عائدينَ.

ووصلَتْ جماعةُ الدُّمَيْنة إلى الضريحِ، ففُوجَئتْ بأنَّه لَمْ يكُنْ يحترِقُ. ورأوْا جماعةَ مدرَستِنا تدورُ حَوْلَ النَّارِ، كالهُنُودِ الحُمْرِ، وتُنْشِدُ الأناشيدَ، فاكتفَوْا بتَحْريكِ رُؤوسِهم، والعَوْدةِ من حَيثُ أتَوْا.

وفي القَرْية أخبرَ القِلاعيُّ أمَّه بأنَّ الضَّريحَ لَمْ يحترقْ، فتساَءلَتْ:

«ولماذَا جاءَ أولئكَ الأولادُ يطلبونَ الأسطالَ لإطْفائها؟»

«أي أولاد؟»

«يبدُو أنَّهم من أبنَاءِ المدينَةِ، كانُوا مخيِّمينَ بالسيِّد.»

وهنَا ارتابَ القلاعيُّ، وتوجَّهَ إلى مكَانِ البرميلِ، فزحزحَهُ عَن مكَانِه، ورفعَ غطَاءَ المَطْمُورِ، وأدخلَ فيه يدَه، فكادَ قلبُه يتوقَّفُ!

«لقدْ سرقُوا قفَةَ الوَثائق!»

وسألَ أمَّه أينَ ذهبَا، وهلْ تعرَّفَت أحداً منهُم، فلَمْ تَجدْ جوابًا. ووقعَ شَكُّه علَى الغورفطيِّ الذي جاءَ يطلُبُ منهُ

الوثائقَ فطردَه. فتناولَ هراوةً وغابَ خلفَ الغُرْفَةِ الكَبيرةِ، ثُم عَاد ممتطيًا صهْوَةَ فَرَسهِ السَّوداءِ، وهمزَها وركضَ في اتِّجاهِ الضَّريح.

وهنَا توجَّه إِلى الأوْلادِ، وهُمْ يتفرَّجُونَ على بقيَّةِ النَّارِ الحَمْراءِ الخامدَةِ، وسألَهُم هَل رأوْا أحداً يحملُ قفَّةً قادماً من الدُّمَينْةِ، ووصفَه لَهُم بأنَّه في مثْلِ سنِّهم، قصيرٌ وسمينٌ وكبيرُ الرَّأسِ، فأشارُوا كلُّهم، بتواطُؤ تِلقَائيٍّ، نَحْوَ مَدينةِ العَرَائشِ الواقعَةِ جنوبَ أصيلةَ، علَى المُحيط. فهمزَ فرسَه، وانطَلقَ في الاتجاهِ نفسِه.

وركض إِلى أن وصلَ منعطفًا حولَ قَاعدَةِ الجَبَل، وانبسطَتِ الطريقُ أمامَه واضحةً لامعةً، تحتَ ضَوْءِ القَمَرِ، فتوقَّفَ يتفرَّسُ الرَّمْلَ المبتَلَّ، لعلَّهُ يرَى آثارَ أقدَامِ الغُلامِ الهَاربِ، فلَمْ يَرَ شيئًا. ووقفَ يُنادي باسْمِ الغورفطيِّ، ويطلبُ منه إِعادَةَ القفَّةِ، ويَعِدُهُ بإرجَاعِ جَميعِ أوراقهِ إِليْه.

وعادَ إِليه صدَى صَوْتهِ من الجَبَلِ فظنَّ لأوَّلِ وَهْلةٍ، أنَّ الغُلامَ استجابَ لطَلَبه، ولكنْ سُرعَانَ مَا أُصيبَ بخيبَةِ أمَلٍ!

فلوَى لجامَ الفَرَسِ، وعادَ من حيثُ أتى، وقد أيقنَ أنَّ الأولادَ كذَبُوا علَيْه وأنَّهم مَتَواطئُونَ معَ السَّارقِ. وقرَّر أنْ يفعلَ عكسَ ما قَالوُا، ويأخذَ طَريقَ أصيلةَ.

*   *   *

وأثناءَ مطاردَةِ القلاعيِّ لشَبَحِ اللِّصِّ الوَهميِّ، عُدنَا نحنُ مَعَ عَظيمُو إلى الضَّريحِ، ومعَنَا خُطَّةٌ شيطانيَّةٌ لإفشَالِ مَسْعَاه.

ودعونَا جميعَ أفرادِ جماعَتِنا للاجتمَاعِ بداخلَ الضَّريحِ. ووضعَ عَظيمُو القفَّةَ وَسْطَ الحَلْقةِ، ووقفَ يتحدَّثُ بصَوْتٍ تآمريٍّ خَفيضٍ، شارحًا الخُطَّةَ التي توصَّلْنَا إليْهَا في طَريقنَا:

«لقد استطعْنَا الحُصولَ على الوَثَائقِ التي سرقَها مصطفَى القلاعيُّ من دَارِ أخيه العَدْلِ، بعدَ وَفاته، وعلَيْنَا أنْ نُعيدَهَا إلى أصحَابِها، حتَّى لا تقعَ في يَدِ الصعيديِّ الأعْوَرِ، ويَسْتَوْليَ علَى أمْلاكِ النَّاسِ. ولكنَّ القلاعيَّ سيحاولُ مَنْعَنا، وهَذه منطقة نُفُوذِه، وله فيهَا قُوةٌ ورجالٌ. ولكنَّ الحيلةَ تغلبُ القُوَّةَ والعَدَدَ. وقد فكَّرْنَا في أنَّ هَذه الوَثَائقَ لا يَنْبغي أنْ يحمِلَهَا واحدٌ، حتَّى لا تقعَ كُلُّها في يَدِ القلاعيِّ، مرةً أخرى. لذلكُم

رأيْنَا أن نوزِّعَها بينَنا، وننزِلَ كلُّنَا إلى أصيلةَ الآنَ، لتسليمِها إلى المسؤولين.»

وفتحَ القفَّةَ، وطلبَ من الجميعِ أن يصطفُّوا، ووزَّعَ علَينَا الوثائقَ بأعدَادٍ مُتسَاويةٍ، فأصبحَ عندَ كُلِّ وَاحدٍ منَّا سبعُ وثائقَ. وطلب منا أن نُخفيَهَا جَيِّداً، وأن نضَعَها في أماكنَ لا تتعرَّضُ فيها للعَرَق.

وطلبَ من وَلدِ حَميدُو المُقْعَدِ الذي كانَ الْتحقَ بنَا مؤخرًا القيَامَ بالحراسَةِ أثناءَ غيابِنَا، فقبِلَ مسرورًا ومُتَحمِّسًا؛ فقدْ كانَ قَويَّ العضَلاتِ، لاعتمَادِه على ذراعَيْه في التنقُّلِ. وكانَ إذا أمسَكَ بأحَدٍ، يستحيلُ علَيه التخلُّصُ منه، إلا بالاسْتعطَافِ أو تَقْديم هديَّةٍ!

قالَ عَظيمُو: «سنخرُج الآنَ، ونتوجَّهُ راكضينَ إلى أصيلةَ. وعلَى من لا يقوَى على الرَّكْضِ مسافةً طويلةً أنْ يبقَى هُنَا حتَّى نعودَ. وإذَا لحِقَ بنَا القلاعيُّ، وسيفعلُ، وسألَكُم لماذَا أنتُم عائدونَ في هَذا الوَقْتِ، فدعُوني أجيبُ.»

وأنصتَ الجميعُ في خُشُوعٍ، وقد أحسُّوا بثقَلِ الأمَانةِ ونُبْلِ

الرسالةِ، وتحرَّكَتْ في نُفوسِهم مشاعرُ التَّضْحيَةِ والجهادِ من أجْلِ هَدَفٍ سَامٍ. وتحوَّلَ الفَوْضَويُّونَ المشاغبونَ من مجرَّد قَطيعٍ تقودُه غرائزُه، إلى فَريقٍ متعَاونٍ مَسؤولٍ. وتحرَّكُوا وراءَ عَظيمُو وكأنَّهم خارجونَ في سَريَّةٍ أو غَزْوَةٍ لقتَالِ المشركينَ.

* * *

وما قطعُوا منتصفَ الطَّريقِ حتَّى ترامَتْ إلى سَمْعِهم أصْوَاتُ وَقْعِ سَنابِكِ الفَرَسِ وصَيْحَاتُ القلاعيِّ، وهو يحثُّها علَى الرَّكْضِ. والتفتُوا فرأَوْا شبحَه الأسْوَدَ مصوَّرًا في سَماء الأُفُق المُقْمر، وهو يقتربُ منهُم بسُرْعة مُزْعجَة.

وتوقَّفُوا عن السَّيْر. وكانَ عَظيمُو قَدْ أوصاهُم بأنْ يتصرَّفُوا بدَمٍ باردٍ، وبإشَارةٍ منْه فسحُوا للقلاعيِّ الطريقَ ليمُرَّ. وتوقَّفَ هذَا بينهَم سائلاً دونَ مقدِّماتٍ:

«إلَى أينَ أنتُم ذاهبونَ في هَذه السَّاعَة؟»

فقالَ عَظيمُو:

«نحنُ عائدونَ إلى أصيلةَ لحضُورِ جنازةِ معلِّمِنا، الفقيهِ الجبليِّ؛ فقدْ وصلَنَا نعيُه قبل سَاعَةٍ، ونريدُ أن نُصبِحَ هناكَ.»

وأينَ ولدُ الغورفطيِّ؟»

«لا نَدْري؛ فهوَ ليسَ من تَلاميذِ المدرسَةِ.»

فقالَ القلاعيُّ غاضبًا:

«أنتَ كذْابٌ، أنَا أعرِفُ أنَّه باتَ معَكُم ليلةَ أمْسِ.»

وترجَّلَ عن فَرَسه، وأمسَكَ بتَلابيب عَظيمُو، وصاحَ فيه، دونَ مقدِّمات:

«أينَ القفةُ؟»

«أيَّة قُفَّة؟»

«قُفَّةُ الوَثَائقِ التي سرقتُم من دَاري!»

فردَّ عظيمُو ببرودَةٍ:

«أيَّة وَثَائقَ؟ هَلْ تَرَى مَعَنَا قُفَّةَ وثائقَ؟»

لا تَتَمَادَ في أكَاذيبكَ، يا ولد عَظيمُو! أنا أعرفُ ألاعيبَك.»

وأخذَ يدفعُه ويُخَلْخِلُهُ صائحًا:

«أين الوثائق؟».

وهُنَا أحاطَ عبدُ السَّلامِ الأفطسُ وأخُوه وعددٌ من الأوْلادِ

الأقوياءِ بالقلاعيِّ، وتهيَّئوا للانقضَاضِ علَيْه، فالْتفتَ إِليهمْ عَظيمُو، وقالَ بهدُوء:

« لا داعيَ لتدخُّلِكمْ. اذهبُوا الآنَ، وسألتحقُ بكُم. »

والْتفتَ إِلى القلاعيِّ، وأخذَ يردِّدُ بهُدوءٍ ولا مُبَالاةٍ أثارًا أعصابَ القلاعيِّ:

« أرْخِ يدَكَ، أرْخ يَدَكَ، أولدَ الفَقيهِ القلاعيِّ، اللهُ يرحمُ والدَيْك! »

وكانَ في صَوْتِه تهديدٌ مُقنِّعٌ. وهنَا تحسَّسَ القِلاعيُّ جيبَ عَظيمُو، فوقعَتْ يَدُه على شَيْءٍ مُستطيلٍ، في حَجْمِ وثيقَةٍ عَدْليَّةٍ، فتأكَّدَ من صدْقِ حَدَسِهِ، وأدخلَ يدَهُ في صَدْرِ جلبَابِ عَظيمُو، محاوِلاً إِخراجَها، فتشبَّثَ بها عَظيمُو، وصاحَ في الجمَاعةِ التي بقيْت قريبةً تنتظرُ نتيجةَ المَوْقفِ المعقَّدِ:

« ألَمْ أقُلْ لكُم اذهبُوا، واسبِقُوني إِلى المدينَةِ؟! موعِدُنَا المكانُ الَّذي اتَّفقْنا علَيه! »

وفطِنَ القلاعيُّ للحيلَةِ فحاوَلَ الفكاكَ منه واللَّحاق بالجمَاعة، فتمسَّكَ به عَظيمُو وطوَّقَ خَصْرَه بذراعَيْه

الحديدتين، والقلاعي يجاهدُ للخلاصِ، ويضربُه بقبضتَيْهِ علَى ظَهْرِهِ، وهُو صَامتٌ مستميتٌ.

وحينَ اشتدَّ عليه الألمُ انحدرَ إلى ساقَيْه وطوَّقَهُما، ففقدَ القلاعيُّ تَوَازُنَه، وسقطَ على ظَهْرِه وكأنَّه كيسُ دَقيقٍ كَبيرٍ! وطفِقَ يرفسُ ويركَلُ حتَّى خلَّصَ ساقَيْه ووقَفَ مُتَرَنِّحًا، وتوجَّهَ نحْوَ فَرَسِه فولَّتْ هاربةً، وركَضَ خَلْفَها مناديًا باسْمِهَا، فلم تَزْدَدْ إلا نُفُوراً وابتعاداً.

واغتنمَ عظيمُو فرصةَ انشغَالِه فجرَى وراءَ الجَماعةِ.

وحينَ لحِقَ بهم طمْأَنَهُم إلى أنَّ القلاعيَّ لم يأخُذ الوثائقَ منه، وأنَّه لا يتوقَّعُه أن يلحقَ بهم قريبًا. ومضَى الجميعُ في طَريقِهم، يلتفتونَ بينَ حينٍ وآخرَ، ليتأكَّدُوا أنَّه ما يزالُ بعيداً.

وحينَ اقتربُوا من المَدينةِ لاحَ لهم شَبَحُه، مرةً أخرَى، قادمًا على فَرَسِه خلفَهم، فعادُوا إلى الرَّكْضِ. وحينَ اقتربَ صاحَ فيهمْ عَظيمو:

«انتشرُوا! انتشرُوا في كلِّ اتِّجاه، واصرخُوا. النجدةَ! وإذَا أمسكَ بأحدِكُم، فلْيعُضَّ يَدَه، ويَركُلْه في قَصَبةِ سَاقه برأسِ

حـذَائِه ولْيَـأْتِ البـاقـونَ لنَجْـدَتِه، و بالضَّـرْبِ والصِّـيـاحِ العالي . . . »

واختـبَأ عظيـمُو وعبـدُ السَّلامِ والمختَارُ ومغيثُ بجانبَيِ الطَّريقِ. وحينَ اقتـربَتِ الفَرَسُ، خـرجُوا لهَـا جـميـعًـا صـائحينَ ملوِّحينَ بالعِصِيِّ في وَجْـهِـهـا، فـجَـفَلتْ وأسـقطَتْ راكـبَـهَـا. وسُـمِعَ صَـوتُ ارتطَامِ جَـسَـدِه بالأرْضِ وصُـرَاخِـه من الألَـمِ. واجـتـمعَ عليـه المارَّةُ لمسـاعَـدَتِه على النُّهـوضِ، وهَرَبَ عَظيـمُو والجماعةُ ضاحكينَ منتصرينَ.

وعلى بَابِ دَارِ الفَقيـهِ العَدْلِ السيِّـد عَبْدِالسَّلامِ الغـماريِّ اجـتـمـعَتِ العـصابـةُ كـاملةً. وكـانَ مـعـهُـم ابنُه أحـمـدُ، فطرقَ البـابَ ودخلَ، ثُم عـادَ بوَالدِه، فـاستـقـبلَهُم في قُـفطَانِه الأخـضَرِ ومَنْصُوريَّتِه البيضَاءِ الشفَّافةِ، وابتسمَ لَهُم مُرَحِّبًا ومُسْتَفْسِرًا عَن سَببِ قُدُومِهم في هذهِ السَّاعةِ. وتقدَّمَ عَظيمُو وقبَّل كَتفَه ويدَه، وتبِعَه الفتـيانُ، والفَقُيـهُ يتَمْتمُ لَهُم بالدُّعـاءِ. ودعَاهُم للدُّخُولِ.

وفي صَحْنِ الدَّارِ الوَاسعِ شرحَ لَهُ عَظيـمُو باختـصَارٍ سبَب

الزِّيارَةِ، وطلبَ من الأوْلادِ تَسْليمَ الوَثَائقِ إِلَيْه. وجاءَ ابنُه بقفَّةٍ كَبيرَةٍ وبكُنَّاشٍ* عَدْليٍّ، فوضعَ الفَقيهُ الغماريُّ نظَّارَتَه على عَيْنَيْه، وأخذَ يتسلَّمُ الوثَائقَ، ويسجِّلُها أمَامَهم بأسْمَاءِ أصحَابِها. وفي النِّهايَة طلبَ من الجَميعِ التَّوقيعَ في أسْفَلِ لائحةِ الوَثَائقِ بوَصْفِهم شُهوداً. وحضرَ الشَّايُ والخُبْزُ والزُّبْدُ، فقعدُوا يأكلونَ بشهيَّةٍ، ويحكُونَ لَه عن مُغامَرَتِهم معَ مصطفَى القلاعيِّ، وهو يضَحكُ ملءَ فَمِه، وقبل تَوْديعِهم طلبَ منهُم الحُضُورَ إلى المحْكَمةِ في اليَوْمِ المُوَالي، لإتمَامِ الإجَراءَاتِ القَانونيَّةِ.

وفي الصَّباحِ وجدُوا علَى بَابِ المحكَمةِ خَلقاً كثيراً، من بَيْنِهمْ والدةُ عَبْدِالقَادر الغورفطيِّ، كانُوا يتوافدونَ عليهَا كُلَّ صَبَاحٍ، أمَلاً في الحُصُولِ علَى وثَائقهم، فقدْ سَرَى الخبرُ بسُرْعَةٍ في المَدينةِ. أشاعَه نَبَأُ اشْتبَاكِ الصعيديِّ الأعُورِ معَ القلاعيِّ، على بَابِ المَدينَةِ في الليلَةِ السابقة، ومُطالبَته إيَّاه بالوَثائقِ التي وعدَهُ بهَا. وكان الصعيديُّ يعتقدُ أنَّ القلاعيَّ اختلقَ هَذه المسرحيةَ البعَيدةَ التَّصْديقِ ليبيعَ الوثائق لشَخْصٍ آخرَ دَفَعَ أكثرَ!

وفي وَسَطِ قَاعَةِ المحْكَمةِ، وقفَ الفَقيهُ الغُماريُّ أمامَ القَاضي وبَقيَّةِ العُدولِ يُنادي بأسمَاءِ أصحَابِ الوَثائِق، ويسلمُها إلى القَاضي، فَيُسلِّمُها هذَا إليهمْ، ويقبِّلونَ يَدَه شاكرينَ داعينَ. وكانَ القَاضي يطلبُ مِنْ كُلٍّ من تسلَّمَ وثائقَه البقَاءَ في القَاعةِ، حتَّى انتَهى من تَوْزيعِها. وحينَئذٍ خاطَبَهُم قائلاً:

« أيُّها السادةُ والسيِّداتُ، إنَّ الفضلَ في رُجوعِ وَثَائقِكم إليكُم يرجعُ، بعدَ اللَّهِ، إلى جَمَاعةٍ من الشُّبَّان علمُوا بوجُودِها عندَ المدعوِّ مصطَفى القلاعيِّ الذي سرقَها من بَيْتِ أخيهِ المتوَفَّى، ونجحوا في استرجَاعِها منه، بعدَ أنْ عرَّضُوا أنفُسَهم للخَطَرِ، وقطَعُوا نُزهَتَهم في سيدي مُغيثٍ، للقيَامِ بهَذهِ المهمَّةِ النَّبيلةِ والصَّعبةِ. لذلكُم أريدُكُم جميعًا أن تعبِّرُوا لَهُم عن شُكْرِكُم، وعِرفَانِكم بالجَميلِ، ولكنْ ليسَ باللِّسَانِ فَقَطْ، بَلْ بكلِّ ما تَسْخُو به نفوسُكم من مَالٍ أو طَعَامٍ أو غَيرِه، لإتمَامِ نُزْهَتِهم في سيدي مُغيث. »

واستحسنَ الجميعُ الفكرةَ، ووضَعُوا في طاقيَّةِ عَظيمُو

عـدداً من الأوراقِ الماليَّـةِ الكبيـرةِ، يَكْفي لقـضَـاءِ أسـبُـوعين أو أكثـرَ علَى الشَـاطئِ الجَمـيلِ، دونَ حـاجَـةِ البـوكـيتِ وعَـويِّرةَ إلى العِرَاكِ من أجْلِ الطَّعامِ.

وأصـدرَتْ المحكمـةُ أمـراً باعـتـقَـالِ القـلاعيٍّ والصَّـعـيـديٍّ الأعْوَرِ، وحكَمَتْ عليهمَا بالحَبْسِ مدَّةً طويلةً، وأراحَتْ منهُمَا البلادَ والعبادَ!

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب [illegible] الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوال[illegible] بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض[illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا[illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي.


٩٩٦٠-٤٠-٣٧٩-٩
7000398

